ISSN: 1112- 7872 مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 17 عدد: خاص جانفي 2022
العنوان: السلوكات السياسية والاجتماعية للكولون... ص.ص 909- 925.

السلوكات السياسية والاجتماعية للكولون ونظرتهم للجزائريين 1830- 1954

داعي محمد
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة سعيدة،
mohamed.dai @ univ-saida.dz

تاريخ الإرسال: 2020/ 01/21؛ تاريخ القبول: 2021/01/02

The Political and social behaviors of the colon and their view of the Algerians

DAI Mohamed

Abstract:

Colonial France had a great role in making the European minority bloc the rock on which its objectives to keep Algeria French would be broken, by fully standing behind it, support and support over successive decades, through the apartheid policy imposed by the French project.

The matter that made the European minority dig its trench in which it would burial with its dealings and behavior towards the Algerians who were steadfast and patient and confronted them until they thwarted all their plans, including the goals of France, on top of which to keep French Algeria, so the Algerian revolution broke their back and put an end to their maneuvers.

key words: European condominium(the colon)- The settlers- The Algerian people- Racism- Extremism- Knowledge spirit- Intolerance.

الملخص:

لقد كان لفرنسا الاستعمارية دور كبير في صنع من كتلة الأقلية الأوروبية الصخرة التي ستتكسر عليها أهدافها في إبقاء الجزائر فرنسية، وذلك بالوقوف الكامل من ورائها مساندة ودعما عبر عقود متتالية، من خلال سياسة التفرقة العنصرية المفروضة من قبل المشروع الفرنسي.

الأمر الذي جعل من الأقلية الأوروبية أن تحفر خندقها الذي ستقبر فيه بمعاملاتها وسلوكاتها اتجاه الجزائريين الذين ثبتوا وصبروا وتصدوا لهم إلى أن افشلوا جميع مخططاتهم بما فيها أهداف فرنسا وعلى رأسها إبقاء الجزائر الفرنسية، فقصمت الثورة الجزائرية ظهرهم و فككت مناوراتهم.

الكلمات المفتاحية:

الأقلية الأوروبية؛ (الكولون) المستوطنون؛ الأهالي الجزائريين؛ العنصرية؛ التطرف؛ الروح العرقية؛ التعصب.

مقدمة:

عملت فرنسا الاستعمارية لإنجاح الاستيطان ومن ورائه بقاء الجزائر الفرنسية، على الدعم والمساندة المادية بما في ذلك محاربة الجزائريين وإبادتهم، وحماية المعمرين بالجيش، وعسكرتهم في مليشيات، والاحتقار والشتم والتعنيف للأهالي، وكذا مساعدة الحاكم العام لهم، ثم اللامساواة والتمايز بينهم والأهالي في جميع المجالات، وبناء مدن على الطراز الفرنسي بعمارات ومنازل ونوادي كلها حاملة لأسماء فرنسية، من مشجعي الاستيطان بما في ذلك دفع الضرائب، صرف الأموال، عدم ترك هامش للحرية لدى الأهالي، تجهيلهم ... تهميش مفضوح .

حتى أصبح من لا مستقبل له متحكما فيما تتخذه فرنسا من قرارات، إلى أن وصل الأمر لاعتراضهم وانتقادهم لما تتبناه حكومتهم للحفاظ على مصالحهم وامتيازاتهم وهيمنتهم، بالتعبئة الشاملة ولعقود كرسوا وجودهم ولم يترددوا حتى في استعمال القوة لقهر طموح الشعب في الحرية والاستقلال. واستطاعوا بفضل امتلاكهم للثروة وتمكنهم من السيطرة على مراكز القرار داخل البرلمان والحكومة، أن يحافظوا على استقرارهم ويفشلوا كل مشروع يتضمن تحسين وضعية الأهالي. وبذلك صب سلوكهم ومعاملتهم للجزائريين في اتجاه الإبعاد النهائي لهم من الوجود والسعي الكلي للقضاء عليهم في استعلاء عنصري، وهو ما جعلهم يساهمون وبشكل كبير في زعزعة استقرار وأمن فرنسا الداخلي مع تطور الأوضاع للقضية الجزائرية.

الاستيطان وخصائص العنصر الأوروبي:

لقد شرع في تعمير البلاد بالأوروبيين بمجرد احتلال مدينة الجزائر، فيقول فرحات عباس: "أكبت السفن الآتية من مرسيليا وإسبانيا وإيطاليا، جماهير غفيرة من الأوروبيين لا ذمة لهم ولا ضمير مجبولين على الشجاعة والمغامرة، مولوعين بحب الدراهم والدنانير، فانتشروا كالبلاء المستطير، متكالبين على بيع العقارات وشرائها في تهافتهم على الأرباح متكالبين تكالب الجياع على القصاع، يبيعون ويشترون خطفا ونهبا، لا دين لهم إلا الأرباح الباهظة، لا يهمهم كيف أتت ومن أين أتت."(فرحات، 2005: 93). ويؤكد أبو القاسم سعد الله على نفس الأمر، إذ يقول: "إن المجتمع الفرنسي لم يبعث صفوة سكانه إلى الجزائر بل على العكس من ذلك، فقط من المجرمين والمغامرين السياسيين الذين شكلوا النصيب الأكبر"(سعد الله، 1986: 106).

إنهم شتات مستورد من الخارج، جلبتهم الإدارة الاستعمارية وغرستهم في الجزائر ليكونوا هم الأغلبية... غادروا أوطانهم بحثا عن مورد الرزق، مكثوا حيث وجدوا الخبزة، لا تهمهم إلا اللقمة، ولكن اللقمة أصبحت في أعينهم مرادفة للجزائر الفرنسية.(المجاهد، 1961: 5) كما وصفهم عمار قليل في كتابه ملحمة الجزائر الجديدة، وصفا دقيقا إذ يقول: "معظمهم ممن لفظتهم مجتمعاتهم لسوء سلوكهم ووجودهم في أدنى مراتب السلم الاجتماعي من الدول التي قدموا منها، وجدوا في الجزائر ملجأ لهم حيث انتقلوا من أوضاع البؤس التي كانوا يعيشون فيها إلى جنة النعيم، حيث الأرض الخصبة والمياه العذبة والأيدي العاملة الرخيصة... لقد كان المستوطن كالجائع الذي عثر على رغيف من الخبز فعض عليه بيديه وأسنانه." (قليل، 1991: 65). وهو ما وصل إليه شارل روبير أجيرون قوله: " كان أغلبهم ميسورين، جاءوا ينشدون الثروة."(أجيرون، 1986: 89)

دليل ذلك أنه عندما أوقف "نابليون الثالث" سياسة الاستيطان المتمثلة في الاستيلاء على الأراضي الجزائرية، أشاعوا عنه ما أسماه بـ"المملكة العربية" أنه تنازل للعرب.(Chikh, 1981 : 193) وأبطلوا مشروعه ورجعوا وبقوة في استغلال الأرض وأهلها، مما جعل

فرحات عباس يقف مستنتجا وراء تساؤله قوله: " ماذا علينا أن نستخلص عندما يستغل إقطاعي استعماري بهذه الطريقة المنحطة من أجل أن يحتفظ بيد عاملة لا حماية لها؟" ثم يجيب: " ما عدا أن النزاهة والتقاليد الفرنسية قد بقيت في الجهة الأخرى من البحر."(فرحات، 2010: 60)

وهي حقيقة وقف عليها أحمد طالب الإبراهيمي عند انتقاله، ووالده البشير الإبراهيمي للعلاج بمدينة فيشي، أدرك يومها أن العلاقة مع فرنسيي فرنسا أكثر طبيعية وأقل توتراً من فرنسيي الجزائر، (الإبراهيمي، 2006: 66) حتى مصالي الحاج وقف على هذه الحقيقة حين يقول: "كنا مرتاحين لتصرفات السكان معنا والتي كانت طيبة إلى حد ما، فكانت معاكسة تماما لما يتصف به المعمرون الفرنسيون بالجزائر والشعب الفرنسي عموما في علاقاتهم معنا."(مصالي، 2006: 84) وهو ما جعل المجندين الجزائريين في حرب 1914-1918 يكتشفونه من خلال ما جاء على لسان فرحات عباس: "فتحت سماء فرنسا، وعن طريق احتكاك هؤلاء الجزائريين بأناس آخرين ذوي أخلاق مختلفة، بدأوا يعون حالتهم المزرية، فحكموا على النظام الاستعماري بالجملة وأدانوه وراحو منذ ذلك الحين يطالبون باستقلال المغرب العربي."(عباس، 2010: 13)

هذه الأقلية التي استوطنت الجزائر يصفها يحي بوعزيز: "أنهم كانوا يتألفون من أناس ذوي مسيرة سيئة، ماضي غير شريف، مملوء بالسوابق ينتمون إلى فئة المتشردين وشذاذ الآفاق هدفهم الحصول على الثروات وليس الاستقرار وخدمة الأرض والإنتاج." (بوعزيز، دون تاريخ: 35). وقد استغلوا الظروف ومنها الحروب التي أباحت لهم الممنوعات وهو ما تسوقه "آني راي غولدزيغر" في كتابها جذور حرب الجزائر: "السوق الموازية في تجارة الزيت، اللحوم، السجائر، الكحول، إضافة إلى المتاجرة بالنساء وبيوت الدعارة لكل منهم تخصصه ومنطقته وطرقه، فاختلطت المافيا من مختلف الأقليات، واتسعت شبكة الفساد والرشاوى... تمكنوا من تعديل كفة الثروات الاستعمارية لصالحهم."(غولد زيغر، 2005: 44).

عاشوا التباين بسبب اختلاف مشاربهم التي وقفت حائلا دون تحقيق الانسجام الكامل حتى أن بلغ الأمر بالفرنسيين النظر للأوربيين من الجنسيات الأخرى بشيء من التعالي والاحتقار(حربي، 1994: 81). أما عن الأهالي يقول عبد الرحمن مزيان الشريف: "كانوا يمرون دون أن يروننا، كانوا ينظرون إلينا بتعالي واستضعاف، نظراتهم مليئة بالحذر والتهكم، لأننا كنا في عيونهم نمثل المجهول والغرابة، كنا نمثل الخطر"(مزيان الشريف، 2012: 18-19).وهي الحقيقة التي وقف عليها فرحات عباس قوله : "لقد تعود المستوطنون على تنشئة أطفالهم على احتقار "الأهلي" والخوف منه، والجهل به وعلى هذا النحو يكبرون وهم يحملون عنه أحكاما مسبقة ومن هنا يأتي الصدام، عدم الوفاق والأحقاد...(فرحات، 2010: 33). تضيف آني راي غولدزيغر قائلة: "أن العلاقة بينهما ما كانت متساوية بأي حال من الأحوال، فالأبوية لكي لا نقول العنصرية هي أساس هذا النظام الاستعماري... لا أحد كان يناقش تفوق الأوروبيين"(غولد زيغر، 2005: 91). اعتقادا منهم بأنهم خلقوا ليكونوا سادة وليكون غيرهم عبيد وأن أية محاولة لتبديل هذه الفروق هي عملية تستهدف نشر الفوضى.

هذا التناقض الوجداني امتزج فيه الشعور بالرعب بتوقع انقضاض الأغلبية المسحوقة واقتصاصها منهم، والشعور الشديد بالكبرياء والترفع. وتعامل "الأهالي" بكثير من الترفع والاحتقار وتفرض على أهل البلاد ما كان يعرف في جنوب إفريقيا باسم قانون المناطق التجميعية الذي يمنع الاختلاط العنصري(غولد زيغر، 2005: 44). كما أن هذه الوضعية التي كابدها عبد الرحمن مزيان شريف، يصفها بأدق تفاصيلها ضمن كتابه حرب الجزائر في فرنسا قوله: " إن أبناء المعمرين الذين يرتدون ألبسة ويعتنون بهندامهم جيداً بحيث يعيشون في عالم قريب منا وبعيد عنا في آن واحد، كان قريبا منا لأننا كنا نراهم يمرون أمامنا كلهم إعجاب بأنفسهم وحسد وحقد علينا في أغلب الأحيان، كانت بطوننا خاوية تحسد محياهم المشرق ووجناتهم الممتلئة، كما نشعر بالغيرة تجاه ثيابهم المكوية على الدوام

وبشكل جيد ما يجعلهم في غاية الأناقة ومن تسريحات شعرهم اللامع المنسق والمصفف جيداً"(مزيان الشريف، 2012: 18).

كما عايشها مالك بن نبي من خلال استفزازاتهم واستهتاراتهم من الجزائريين قوله: " بدأت أضع نظارات على عيني، لقد كان ذلك أول الأمر مبعث إزعاج لي من الشباب الأوروبي الذين يقدحونني كلما رأوني بقولهم: " إيه أبو أربع عيون" أنا الذي كنت أعرف بالشاشية الحمراء"، يضيف قائلاً: "كان هؤلاء الأوروبيين يستقطبون تفكيري... حين كنت أراهم أيام الأحد يتنزهون تحت إشراف ناظر مدرستهم... كان الخيال ينطلق بي معهم، فهؤلاء سيصبحون: محامين، أطباء وأساتذة، أما أنا فقد حكم عليّ بأن أكون عدلا"(بن نبي، 1986: 51). إلى جانب هذا التحليل يضيف واصفا معاناة الجزائريين حتى في أبسط الأمور مع الأقلية الأوروبية، إذ يقول: " شراء قميص حديث مع ياقتين كان لا بد من الذهاب إلى متجر فرنسي، ليس هذا كله شيء، التحدث إلى البائع قد يكون يهوديا قادرا على السخرية أو فرنسيا يتصنع الأهمية أمام زبون من أبناء المستعمرات، لقد كان هذا بالفعل أمراً صعباً"(بن نبي، 1986: 69).

يحلل "ألبير كامي" هذا الوضع قوله: " ليس له مخرج كي يغادر تعاسته سواء بالتجنيس أو حتى بالتحول الديني مما يمنع عنه المستعمر حرية الاختيار في أن يكون ابن المستدمرة"(كامي، 2007: 90). وبذلك أصبحت هذه الأقلية أداة الاستعمار المباشر في فرض ديمومة الحكم الإرهابي، وصفتها جريدة المجاهد في أقلية اختلفت عن الأغلبية في كل شيء في عقليتها في ثقافتها في استحواذها على الموارد الاقتصادية للبلاد وحتى في انفرادها بالحكم والسلطان (المجاهد، 1961: 5). وهذا كله بدعم ومساندة حتى من منظري العملية الاستيطانية "طوك فيل" الذي استند عليه "أوليفي لوكور غرانميزون" في كتابه الاستعمار الإبادة "على الجيش والمعمرين أن يبقوا مدججين بالأسلحة للدفاع عن أنفسهم ومكتسباتهم، ويجب حث باقي الأوروبيين على القدوم هنا بحيث سيساهم عددهم ونظامهم على إبعاد الأهالي."(غرانميزون، 2007: 139).

دعم حكومة فرنسا للكولون وعنصريتهم تجاه الأهالي:

لقد فرضت فرنسا الاستعمارية الخضوع المدمر على الأهالي زادته غطرسة الكولون وعدوانيهم مما جعل هذه الطائفة مغلقة مستأثرة بكل الثروات الأساسية والأعمال، احتكار الوظيفة العمومية والسلطة السياسية، بقول فرحات عباس "كانت تظن نفسها بنت الألف عام"(فرحات، 2006: 13) وهو ما يتضح من خلال المجالس المنتخبة التي أصبحت فيها الأقلية الوطنية في المجلس الجزائري مجهولة، لم تعطى لها إمكانية لتقوم بعمل إيجابي حيث أصبح غرفة لتسجيل إرادة الكولون ونفس الجو عاشته المجالس البلدية (صاري، 1987: 105). بحيث تمكن الكولون من أن يحلوا مكان الجزائري بكيفية منظمة وضاربة أثرت عليه وبشكل كبير، فاختل النظام القبلي وآلت أسر كانت أحوالها ميسورة إلى حالة التسول، ووقعت أسر أخرى ضحايا مرابين أمسكوا بخناقها."(فرحات، 2006: 10).

وعلى هذا الخط يبين فرانز فانون التباين والتفاوت الذي كان يميز المجتمعين قوله: "هناك مجتمع الرفاهية بأحيائه وشوارعه النظيفة ورجاله المعمرين الذين يعيشون حياة الرغد والبذخ، وغير بعيد منه حياة البؤس والشقاء بأحيائه القصديرية وأهله المعرضين للأمراض الفتاكة، والفقر المدقع (فانون، 1984: 7). وبهذا الصدد تذكر آني راي غولدزيغر: "أن العنصرية لا توجد فقط بالمساكن المتجاورة وفي الحياة اليومية، هي موجودة في العقول، فثمة حاجز نفساني منيع يفصل بينهما."(غولد زيغر، 2005: 96)

نابع من عنصرية متناهية متطرفة غرسها منظري العملية الاستعمارية ملحين على أن الحضارة الأوروبية لابد لها أن تكرس جذورها وتمد أغصانها أكثر في أرض إفريقيا المتوحشة معارضين دخول العنصر العربي لها، فهذا "بوديشون" الذي استشهد به "أوليفي لوكور." يقول: "لابد أن نحترس فان العنصر العربي سيدخل في شجرة حضارتنا مثل الدودة وسيلتهمها ومهما سقيناها بدمنا وعرقنا فإنها ستبقى شجرة هزيلة وغير مثمرة."(غرانميزون، 2007: 158) ومن خلال التعبير الصادق عن المخزون الثقافي لعقلية الأوروبي ونظرته اتجاه الإنسان الجزائري، حيث لا يعترف بشخصيته وهويته

ويسميه أحيانا بالمسلم الفرنسي، الأهلي، العربي، الشمال الإفريقي، إلا أنه لا يسميه بالجزائري.(Planchais, 1990: 42)

ستصبح هذه العنصرية مقيتة عندما تصل الطبقة المثقفة، ذلك ما يشهد به أحمد طالب الإبراهيمي من خلال الحصة التي حضرها بمستشفى "مصطفى باشا" مع البروفيسور "كوستونتيني" والذي بشرحه لهم طريقة شل حركة الساعد في حالة من الحالات لكسر العظم، قال لهم يجب أن يتم على طريقة "أعطيني صولدي" بطريقة المتسول الذي يمد يده في شوارع العاصمة." (الإبراهيمي، 2006: 66) وبنفس التصرف يذكر فرحات عباس عنجهيتهم ونظرتهم العنصرية بقوله: " كثيراً ما تحدث مصادمات عارضة... ومن ذلك أن طالبا من أصل مالطي، قدم من نواحي سوق أهراس، قرعني ذات يوم أمام كليات جامعة الجزائر بهذه العبارات "لولا فرنسا لكنت راعي ماعز في دوارك" فرددت عليه قائلا: قبل مجيء الفرنسيين كانت أسرتي لا تعرف الجوع، وكان لجدي حقله وقطيعه ولكن أنت هل يمكنك أن تقول لي ماذا كان آباؤك يفعلون في مالطة؟ أليس البؤس هو الذي جعلهم يهاجرون إلى الجزائر."(فرحات، 2006: 12)

كانوا لا يرغبون في أن يروا جزائري يعتلي من المناصب التي تتقرب منهم إذ وبعد أن عين عبد الرحمان فارس والتحاقه بمنصب كموثق بمدينة البرواقية اصطدم بعنصرية المستوطنين وحتى عند استقباله من قبل وكيل الجمهورية كان بفتور حتى انه يذكر عنه: "أنه لم يخفي مقته الشديد لكل ماله علاقة بالجزائر"(فارس، 2007، 20). لقد بلغ بهم حقدهم إلى حد الدفع بجزار كان عبد الرحمن فارس متعود على اقتناء اللحم منه، وذلك بإيعاز من رئيس بلدية البرواقية حيث يقول: "بدخولي عليه بدا محرجا، فدنا مني وهمس في أذني "تلقينا أمرا منذ يومين من رئيس البلدية بإعطاء الأولوية للزبائن الأوروبيين"(فارس، 2007: 27). اتجه عبد الرحمن فارس صوب البلدية، تقول آني راي غولدزيغر: "استقبله "بارغو Pergaud" رئيس البلدية، المزارع وصاحب محطة للعلاج بالمياه المعدنية مهاجما إياه: "لم أكن أعلم أن العربي بإمكانه أن يعين موثقا..."(غولد زيغر، 2005: 259).

لذلك تعتقد إيفون تورين، التي اعتمد عليها محفوظ سماتي في كتابه الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها: "أن رجال الثقافة والأطباء ورجال الدين لم يكونوا أبرياء، إنهم يشكلون حلقة من حلقات هذا النظام المتماسك الأجزاء: 'إن الأهالي يلتزمون الحذر من المعلم تماما كما يتحفظون من الطبيب ومثلما يتقون شر رجل الدين نفسه." (سماتي، 2007: 202). وهذا الأخير سيبقى على عنصريته وبمكائد متتالية لعبد الرحمان فارس عن طريق تقارير سلبية لمصلحة الشؤون الأهلية أحدها مضمونه جاء فيه: "موثق عربي، مناضل وطني متستر، اجتماعات مسائية، مكلف بمهمة خلع الحيازة من الأوروبيين." (فارس، 2007: 24)

وصولا إلى ما استخلصه جان بول سارتر في كتابه مواقف مناهضة للاستعمار ذكره: "أنه لا يوجد معمر جيد وآخر قبيح، بل هناك استعماريون فقط."(سارتر، 2007: 56). وأن يكونوا على الدوام هم السادة والجزائريين هم العبيد حتى ان المطالبة برفع صفة الرق عنهم يقول الفضيل الورتلاتي: "كان يهيجهم ويجعلهم ينادون ويهددون بالويل والثور وعظائم الأمور ثم يندبون مصالحهم المهددة بالخطر الزوال"(الورثيلاني، 2007: 54). وهو الفعل المشين الذي وقفت عليه هذه الطبقة من الفرنسيين ضد الشعب الجزائري، يقول فرانز فانون من خلال كتابه العام الخامس للثورة الجزائرية: "رأينا أطباء عسكريين يستدعون لمعالجة جندي جزائري من الجرحى في معركة، فيرفضون إسعافه بحجة أنه لم يبق أي أمل في إسعافه، غير أنه وبعد الوفاة، يقر أنه أفضل له من البقاء في السجن حيث كان يجب إطعامه بانتظار إعدامه، حتى الصيادلة قرروا قطعا منع بيع الحقن الواقية من الكزاز ولا حتى الكحول والقطن." ليخلص في الأخير قوله: " العلم المجرد من الصفة السياسية، العلم في خدمة الإنسان غالبا ما يكون لا معنى له في المستعمرات"(فانون، 2004: 151).

حتى القيم الدينية أو الأخلاقية التي تلقن في المدارس أو مواعظ الكنيسة لا تعيش بمفهومها الحقيقي إلا في حدود معينة، هي حدود الكائن الأوروبي الغربي، أما العربي فهو خارج عن هذا النطاق، معاملته لا تخضع لهذه القيم، مثل ذلك القس المسيحي الذي

ضحك عندما قال له أحد المستوطنين لقد دهمت اليوم ثلاثة جزائريين بسيارتي وقتلت أحدهم، ضحك ابن الرحمة المسيحية وقال له "يا لك من بليد لماذا لم تقتلهم ثلاثتهم؟"(المجاهد، 1961: 5). وهو أمر وقف عليه أيضا فرحات عباس قوله: "راجعوا حوليات العدالة سوف تعلمون أن الأوروبي يستطيع أن يغتالنا وهو على يقين أنه لن يعاقب." ويبرر ذلك ما كتبته جريدة "ليكو دالجي" بتاريخ 8 مارس 1928: " من أجل خمسة وعشرين فرنكا كان مدينا له بها، قتل فحام إسباني عاملا أهليا، وخرج بريئا."(فرحات، 2006: 147).

وعليه كثيرا ما تردد لدى الأوروبيين في إظهار العداء للجزائريين لأنهم وجدوا ميزان القوى لصالحهم، (الأشرف، 1983: 188). وهي الرؤية التي عرفها فرحات عباس:" لقد كانوا يذكروننا كلما سنحت الفرصة أنه يعيش على هذه الأرض غالبون ومغلوبون." (فرحات، 2006: 12). في ظل تعداد سكاني غير متوازن فيه ظروف جد قاسية وهو ما عبر عنه سليمان الشيخ :"كان فيها فريق يكبر أكثر فأكثر ولكنه يعيش حياة هامشية، (الشيخ، 2002: 169) فكانوا يثيرون دائما الشغب والفتن ضد المسلمين لكونهم بدون رقابة ولا تقع عليهم عقوبات، وقد أعطاهم هذا الشعور بأنهم أصحاب حق طبيعي في تقرير القانون والنظام الذي يسيرون عليه"(دسوقي، 2001: 16) بعد أن دمروا الدولة الجزائرية 1830 بانتزاع الأرض وإخضاع الشعب، يقول أندري ماندوز ساهموا في نمو بارز لعقلية العنصر الأوروبي الذي أصبح السيد المطلق والمهندس والمبدع والمالك الوحيد للجزائر، حيث أصبح يزيد من تطابقه مع البلد بقدر ما يستبعد فيه الساكن الأصليين"(ماندوز، 2007: 200).

معتبرين أن وجودهم بالجزائر أقدم من التواجد العربي الإسلامي، لأن فرنسا وريثة روما وما الكنيسة الكاثوليكية إلا استمرار لرجلها المفكر "القديس أوغسطين" مستندين على مبررات من المدرسة التاريخية الاستعمارية التي يتزعمها "ستيفان غزال- غيميل فليكس غوتي- كريستيان كورتو- أندري جوليان..." في أنه:

- جغرافيا وسياسيا شمال إفريقيا استمرار وامتداد لأوروبا.

- فرنسا استمرار للفترة الرومانية المسيحية وما الفترة الإسلامية إلا نفق مظلم.
- قصور ذاتي وعجز عرقي عند الإنسان الجزائري. (شنيتي، 1985: 5-10)

مكونين مجتمعا متشبثا بطبائع البيئات الأوروبية التي جاءوا منها(دسوقي، 2001: 16). ذلك ما عايشه عبد الرحمن مزيان شريف قوله: " لما يحتفلون بالأعياد المخلدة لتاريخهم... كانت أعياد خاصة بهم وحدهم، كانت تقام بحديقة وسط المدينة وكان محرم علينا الاقتراب منها... كنا نرقبهم من بعيد ونحن نحلم بدخول عالم حرم علينا الاحتكاك به"(مزيان شريف، 2012: 28-29).

وبإسقاطها على المجال السياسي صرح أحد برلمانييهم "روني ماير" بالجمعية الوطنية الفرنسية، أدرجه فرانز فانون ضمن كتابه معذبو الأرض قوله: "أن علينا لا نلوث الجمهورية بإدخال الشعب الجزائري إليها، ذلك أن القيم تتسمم وتفسد على نحو لا يمكن إصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المستعمر."(فانون، 1984: 17). وفي المجال الاجتماعي منه الزواج، تتحدث آني راي غولدزيغر: "عن هذا الالتحام أو الاندماج أو الذوبان هو مجرد استثناء يؤيد القاعدة العنصرية، فالزواج المختلط كان نادرا"(غولد زيغر، 2005: 91). ضمن هذا السياق يذكر مصالي الحاج: " أن زواجي من الفرنسية ومن بلد جان دارك (اللورين) رأوا فيه بعين غير راضية، واعتبروها مساسا خطيرا بنفوذهم وكرامتهم كجنس متعال" ثم يضيف قائلاً: "قالوا وبغضب أنه يحتمل أن تكون سارقة أو عاهرة في الأحياء."(مصالي، 2006: 130)

تطرف وقفت عليه جريدة المجاهد بالتحليل أن ما هو سائد لدى الأقلية الأوروبية لخصتها عاملة في مطعم بشواطئ وهران قولها: "هل تريد منا أن نتعايش مع الذئاب؟ حتى صاحب المطعم يرى أن كل تفكير في التغيير يعد خيانة، ملخصا نظرته في استحالة التعايش بالعبارة التالية: "أفضل أن أشاهد ابنتي طعمة للنيران على أن أراها تتزوج من جزائري."(المجاهد، 1960: 75) لذلك أوقفوا كل تعامل مع أبناء المستعمرة، ساهموا في بناء الحواجز متهمين إياه

بالانعزال والتحيز والتعصب، متنكرين له في حق أسمى معترف به لمعظم البشر ألا وهو الحرية."(كامي، 2007: 88-89). حتى مفكروهم منهم ‘‘Demonts’’ الذي ارتكز عليه كمال كاتب قوله: "إنهم وقحون ومتعجرفون، فهم لا يشعرون بسعادة الوجود إلا في حياة كسولة منعزلة وفاسدة ولهذا فهم لا يهضمون عادات الأوروبيين." (كاتب، 2011: 290).

مقت وقف عليه مصالي الحاج من خلال مذكراته قوله: "إن المعمرين لا يمتنعون عن إظهار كرههم للعرب حتى ولو كان ذلك بالمزاح"(مصالي، 2006: 37). يضيف فرانز فانون ومن خلال كتابه "معذبو الأرض" قوله: " وصفوا المجتمع الأهلي بأنه خالي من القيم لا سبيل لنفاذ الأخلاق إلى أنفسهم بل إنهم أعداء للقيم معنى ذلك أنه هو الشر المطلق، إنه عنصر متلف يحطم كل ما يقاربه، مخرب، يشوه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق، إنه مستودع قوى شيطانية، أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها، ولا سبيل إلى إصلاحها"(فانون، 1984: 17). في هذا الشأن يقول جان بول سارتر من خلال كتابه "مواقف مناهضة للاستعمار": "أن الأوروبي في الجزائر لا يكون رجلا إلا إذا كان أعلى من المسلم... ولا يرى في ارتقاء "البونيول" الجزائريون الأصليون إلى عالم البشر، بل يمقت هذا الارتقاء لأنه يعلن انحداره الشخصي" يضيف: "القهر والترويض والعقاب، إنها الكلمات التي تستحوذ على عقل المعمر، ولم يبق في الجزائر الفضاء الكافي لجنسين من البشر"(سارتر، 2007: 72).

بحيث أن تصرفاتهم تميزت بالعنصرية، فالعربي في نظرهم ما هو إلا حيوان، مخلوق وهو ممتلئ بالتعصب الإسلامي، لا يمكن وقفه عند حده إلا بالقوة(بوحوش، 1975: 46). كانوا مقتنعين أن لن يتحرك أحد أبداً في الجزائر لأن القوة ستخمد أي عزم لمعارضة "العمل التعميري لفرنسا". لقد كانت الجزائر بالنسبة لهم متاع بدون صاحب وهي صنيعة فرنسا. يقول محمد حربي: " إن فرنسي الجزائر كانوا يعرفون من خلال الصراع الذي يخوضونه ضد طبيعة قاسية سيطروا عليها بفضل مجهوداتهم ووسط معاد "للعرب" الذين يفكرون دائما في هدم ما تم تنفيذه."(حربي، 1994: 95). أفكار بثتها فيهم

صحفهم ذات الروح العرقية، وهو ما ارتكز عليه عبد الحميد زوزو في كتابه محطات في تاريخ الجزائر من خلال جريدة إفريقيا الشمالية تحليلها: "نحن الفرنسيون موجودين في بلادنا... أصحاب هذا البلد بالقوة، نحن إذن الملاك الشرعيين للبلاد."(زوزو، 2004: 230). وهم بذلك ينشرون غطرستهم كأثرياء جدد حتى بين أوساط الأوروبيين الأكثر تواضعا والأكثر ثراء.(فرحات، 2006: 12).

لقد انغمسوا في خضم العنصرية يقول فرحات عباس التي انتحلها آباؤهم وتشبعوا بمبادئها فالديمقراطية تزعجهم"(فرحات، 2005: 39). ولأن الحلول بها تحقق الانفتاح على المواطنين الأصليين وبذلك ستفسد عليهم متعة الامتيازات التي يمارسونها ويستثرونها. وهو ما وقف عليه فرحات عباس من خلال شهادة أحد المعمرين الذي بعث برسالة كتبها بجريدة الإكسبرس بتاريخ 1959 جاء فيها: "تسألوني هل أؤمن بالديمقراطية أقول لكم بأننا لا تهمنا ديمقراطيتكم، أف لها من ديمقراطية، إننا نمقتها ألا ترون إلى أين تفضي بنا هذه الديمقراطية، ثمانية ملايين من "الراتون" قذرين، أميين يتحدون فرنسا". ليضيف ودون حياء: "نرى في عطلة الربيع لا يمكن لنا أن نمتطي قطارا لأنه مكتظ بهم، ولا يمكن أن نسبح في البحر يوم 15 جويلية لأنه غاص بأولئك السفلة المتمتعين بالعطلة."(فرحات، 2005: 39).

لذلك نرى بأن الأوروبي عندما يشير للإنسان الجزائري يستعمل مفردات وضيعة مثل "البيكوراتون، الموكيرا، الصال اراب" العنصر العربي عندهم كائن منحط فاقد لمعاني القيم غير مستوعب لأخلاق الحضارة الغربية وحامل لقوى الشر"(فانون، 1984: 27-28). وعليه برز الجدار الفاصل، ونشأت الهوة العميقة بين المستوطنين الأوروبيين والجزائريين، وكان لا بد لهذا الحاجز الفاصل من أن يتزايد تعاطفا مع الأيام بتأثير الأخطاء المتراكمة". لكن ما ثبت عنهم أن الذين رافقوا جيش الاحتلال من هؤلاء المستوطنين فتحوا له بيوت الدعارة والحانات التي بلغ عددها سنة 1837 مائة وستة وثمانين مخمرة.(Goinard, 1994 : 101)

يصفهم فرحات عباس قوله: " إن هؤلاء الناس هم الذين كونوا ثروات ضخمة، وأصبحوا يتحدثون حديث الأسياد وهم الذين يتمتعون بالثروات والامتيازات، هم الذين يرهقوننا باحتقارهم لنا وبحقدهم علينا." ثم يضيف قائلاً: "هذا المجتمع الذي نراه يتألب ضدنا كانوا طريدي البؤس من أوروبا."(فرحات، 2006: 140-141). ويضيف: "هي نفس الآلام التي نعاني منها اليوم في الجزائر... إلا أن الكولون ينساها ويلعب كوميديا الرجل المتفوق." ليختتم كلامه: "وهكذا تحول هؤلاء الجائعون بدورهم إلى برجوازيين نبلاء على أرض الجزائر منشغلين بالكيفية التي يفصلون بها من جلد الفلاح المسكين لوحات لأسماء فنادقهم."(فرحات، 2006: 80). لقد ندد وبقوة فرحات عباس من هذه السخرية والأنانية حيث تذكر ليلى بن عمار بن منصور قولها: "لقد وقّع على اثنتين وعشرين افتتاحية منددا بلا انقطاع، بأنانية العائلات وبالسذاجة اللامتناهية لصغار المحتلين."(بن منصور، 2011: 265).

ليخلص بالقول: "أن هذه الجماهير البائسة والجاهلة في الغالب، تلجأ إلى إيمانها بربها وتحافظ على وحدتها وعلى نمط حياتها التي تزيد من صلابتها سياسة التفرقة العنصرية المفروضة ما قبل المشروع الفرنسي."(فرحات، 2006: 11). هذا المشروع الذي سايره هؤلاء الأثرياء الجدد، تخيلوا أنهم سيظلون سادة الوضع سيأتيهم الرد على هذا الضلال في الفاتح نوفمبر 1954، يضيف فرحات عباس: "أن أولئك الذين أهانونا والذين عملوا من 1830 إلى 1954 من أجل إبعادنا، والقضاء على الجزائر المسلمة ستقضي عليهم بصفة نهائية."(فرحات، 2006: 16).

الخاتمة

لجأت فرنسا الاستعمارية وعلى عقود متتالية في قهر الأهالي والسعي بكل الطرق للقضاء عليهم من على وجه الجزائر، بالدعم اللامتناهي لمن جلبتهم لإنجاح مشروعها الاستعماري، فكانت وراءهم وبقوة بتشجيع الهجرة، الاستيلاء على الأرض، الأملاك العقارية، مكنتهم من كل شيء ولبت حاجاتهم في جميع الميادين، أصبحوا من كبار الأثرياء حتى تمكنوا من الوصول إلى مركز القرار المجالس

المنتخبة فسيروا البلد برؤيتهم وأهدافهم على أنهم هم السادة والآخرون من العبيد، هيمنوا على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فسيطروا على مراكز التأثير في البرلمان والحكومة، حفاظا على امتيازاتهم الكاملة. وعاملوا الأهالي باستعلاء وعنصرية، وعلى أنهم عبيد لهم، وكانت سلوكاتهم اتجاههم ميزتها الاحتقار والاستخفاف على أن الجزائري غير مستوعب لأخلاق الحضارة الغربية، وحامل لقوى الشر. وبتطرف وحقد وتعصب حتى من مفكريهم الذين ساهموا وبشكل كبير في تنشئة العامة منهم على نظرة متحيزة ومتنكرة لعرقهم جعلت التعايش أمرا مستحيلا عبرت عنه أسرهم في الكثير من المواقف، "هل تريد منا أن نتعايش مع الذئاب"، "أفضل أن أشاهد ابنتي طعما للنيران على أن أراها تتزوج من جزائري."

مشروعهم تفطنت له بعض من الشخصيات الفرنسية بأن مآله الفشل، إن لم تتفطن فرنسا لإدراج سياسة إصلاح شاملة يكون للجزائريين وجود فيها، ورغم هذا وذاك فان بقاء الجزائر الفرنسية سرعان ما تبدد وانكسر على صخرة اليقظة والثبات والصبر الذي تميز به الشعب الجزائري.

المصادر والمراجع:

- الإبراهيمي أحمد طالب، مذكرات جزائري 1932- 1965، الجزء الأول، دار القصبة، الجزائر، 2006.
- أجيرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثالثة، الجزائر، 1986.
- الأشرف مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة، حنيفي عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- بوعزيز يحي، سياسة التسلط الاستعماري و الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1954 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون تاريخ.
- بوحوش عمار، العمال الجزائريون في فرنسا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
- حربي محمد، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، ترجمة، نجيب عياد، صالح المثلوثي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1994.
- دسوقي إبراهيم ناهد، دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ما بين الحربين 1918- 1938، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2001.

- زوزو عبد الحميد، محطات في تاريخ الجزائر والحركة الوطنية الجزائرية، دار هومة، الجزائر، 2004.
- سارتر جون بول، مواقف مناهضة الاستعمار، ترجمة، محمد المعراجي، مراجعة، أحمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2007.
- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986.
- سماتي محفوظ، الأمة الجزائرية، نشأتها وتطورها، ترجمة، محمد الصغير بناني، عبد العزيز بوشعيب، منشورات دحلب، الجزائر، 2007.
- شنيتي محمد البشير، تاريخ الجزائر القديم من خلال المؤرخين الفرنسيين، مجلة الباحث، العدد، الثالث، نوفمبر 1985.
- الشيخ سليمان، الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، ترجمة محمد حافظ الجمالي، طبعة وزارة المجاهدين، الجزائر، 2002.
- صاري الجيلالي، قداش محفوظ، المقاومة السياسية 1900- 1954، الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، ترجمة عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.
- غرانميزون أوليفي لوكور، الاستعمار الإبادة تأملات في الحرب و الدولة الاستعمارية، ترجمة، نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007.
- غولد زيغر آني راي، جذور حرب الجزائر 1940- 1945، ترجمة، وردة لبنان، مراجعة، حاج مسعود حاج، دار القصبة، دار القصبة، الجزائر، 2005.
- فارس عبد الرحمان، الحقيقة المرة، مذكرات 1945- 1965، ترجمة مسعود حاج مسعود، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، دار القصبة، 2007.
- فانون فرانز، العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة، ذوقان قرقوط، مراجعة، عبد القادر بوزبدة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.
- فانون فرانز، معذبو الأرض، ترجمة، سامي الدروبي، جمال الأتاسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الخامسة، 1984.
- فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر، 2005.
- فرحات عباس، الشاب الجزائري، من المستعمرة الى المقاطعة، ترجمة احمد منور، الجزائر، 2010، ص: 60.

- قليل عمار، ملحمة الجزائر الجديدة، الطبعة الأولى، الجزء الأول، دار البحث، قسنطينة، الجزائر، 1991.
- كاتب كمال، أوروبيين، أهالي ويهود الجزائر 1830- 1962، تمثيل وحقائق 1830- 1962، ترجمة، رمضان زبدي، دار المعرفة، الجزائر، 2011.
- كامي ألبير، صورة المستعمر، ترجمة: ميشال سطوف، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر،2007.
- ماندوز أندري، الثورة الجزائرية عبر النصوص، ترجمة، ميشال سطوف، مراجعة وإشراف، سمير سطوف، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2007.
- المجاهد، 22-08-1960، العدد، 75.
- المجاهد، 11-12-1961، العدد 110.
- مزيان شريف عبد الرحمن، حرب الجزائر في فرنسا، موريسيان، جيش الخفاء، ترجمة، العربي بوينون، دار الحكمة، الجزائر، 2012.
- مصالي الحاج، مذكرات 1898- 1938، ترجمة، محمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.
- بن منصور بن عامر ليلى، فرحات عباس، ذلك الرجل المظلوم، ترجمة، حسين لبراش، دار الجزائر للكتاب، الجزائر، 2011.
- الورتلاني الفضيل، الجزائر الثائرة ، دار الهدى، الجزائر، 2007.
بن نبي مالك، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، دمشق، 1986.
- Chikh Slimane, l’Algérie en armes ou le temps des certitudes, OPU, Alger, 1981.
- Goinard Pierre, Algérie l’œuvre française, édition, Laffont, paris, 1994.
- Planchais Jean, Patrick Eveno, La guerre d’Algérie dossier et témoignages, Harphonic, Alger, 1990.

للإحالة على هذا المقال:

- داعي محمد، (2022)، «**السلوكات السياسية والاجتماعية للكولون ونظرتهم للجزائريين 1830- 1954**». **المواقف**، المجلد: 17، العدد: خاص، جانفي 2022، ص. ص 909- 925.